«إن القرآن كله ملىء بتفسيرات صبيانية للعالم قد عفا عليها الدهر».

(پاول إسر: خطاب قارئ إلى جريدة FAZ بتاريخ ٢٨/ ٥/ ١٩٩٧).

- ١ -

من حسن الطالع أن هناك إلى جانب العلامات الدالة على المقاومة المتزايدة من الغرب للإسلام، علامات عكسية، أى إشارات إلى استعداد الغرب لتقبل الإسلام بالرغم من المشكلات التى سبق ذكرها.

فالإنسان الغربى، على أقل تقدير، مستعد لتقبل المسلم بما يميزه فولكلوريًا مثل الكباب والكسكسى والكارى، كتقبله للإيطالى بالپيتزا والعجائن، فالإسلام مرحب به كتنوع غريب.

سيزداد انتشار الإسلام عن طريق زيادة المواليد بين المسلمين، حتى وإن أخذت نسبة المواليد فى الانخفاض بسبب ارتفاع مستوى المعيشة. لقد أصبح اسم محمد أكثر أسماء الذكور شيوعًا بين المواليد.

من المحتمل ألا توجد أزمة فى الدين نفسه، ولكننا لا نستطيع أن ننفى أن المؤسسة الكنسية تعانى من أزمة واضحة. وهذا يفسر نشأة وظهور موجة من التدين ذات طبيعة فوضوية وسط الانهيار الذى تشهده الكنيسة، ويمثل هذا إجابة طبيعية ورد فعل مسوَّغًا لما يشعر به الكثير من لشباب من فراغ دينى. من الممكن أن يتم البحث عن معنى عميق للحياة، وعن قيم دائمة ـ تلك هى إحدى الطرق المؤدية إلى الإسلام ـ وحركات الصحوة.

على أىِّ حال لا ينسحب كلُّ من يترك الكنيسة إلى دين ذاتى شخصى أو يتخذ موقفًا لا أدريًا.

يعد احترام الاختلاف أحد فضائل ما بعد الحداثة. ومن مظاهرها كذلك حب الأشياء الغريبة حتى وإن كانت فى صورة شغف بالعالم الثالث، وكذلك مقاومة العولمة وآثارها.

وبالرغم من محاولة استبعاد الإسلام، فإن المسلمين يمكنهم بشكل أو بآخر الاستفادة من موجة ما بعد الحداثة.

تقوم بعض الدول الإسلامية ذات التأثير القوى والأهمية الإستراتيجية بفضل غناها بالثروات المعدنية، باستغلال دورها على الساحة الدولية لخدمة الإسلام، ليس فقط من خلال بناء المساجد، أو طبع ونشر الكتابات الإسلامية الكلاسيكية باللغات الأجنبية. وتعد السعودية والكويت وقطر وأبو ظبى والشارقة من ضمن هذه الدول، وكذلك منظمة المؤتمر الإسلامى.

وبفضل هذه الدول والمؤسسات، لم يعد بوسع الغرب التعامل مع المسلمين لديه دون مراعاة الأصداء الدولية لهذا التعامل. ويتمتع الإسلام فى هذا المعنى بنوع من المكانة بين القوى المختلفة.

أصبح للمنظمات الإسلامية فى الآونة الأخيرة مكانة فى كل من بلچيكا والنمسا، كما أصبحت تحظى باحترام حكومى واضح فى إسپانيا، حتى أصبحت إسپانيا صالحة لتكون مثالًا ونموذجًا يحتذى به فى تشكيل وتحديد العلاقة بين الدول الغربية ومسلميها.

لقد فوض البرلمان فى مدريد الحكومة فى عقد اتفاق مع د. منصور عبد السلام إسكودرو رئيس إحدى المنظمات المركزية الإسلامية المعترف بها حكوميًّا، وبعد التصديق على الاتفاق، تم نشر هذا الاتفاق بصفته القانون رقم ٢٦ لعام ١٩٩٢ بتاريخ ١٠ من نوڤمبر عام ١٩٩٢ فى الجريدة القانونية.

وينص هذا الاتفاق على تدريس مادة الدين الإسلامى فى حالة طلبها، حتى فى المدارس الخاصة، وكذلك توافر الرعاية الإسلامية فى القوات المسلحة والسجون. كما أن للمسلمين الحق فى التوقف عن العمل لأداء الصلاة، ولكن عليهم أن يقوموا لاحقًا بأداء ما فاتهم من ساعات العمل. تتمتع المساجد والعاملون بها وأرشيفها بالحصانة، ولأئمة المساجد سلطة عقد الزيجات. للمسلمين الحق فى الحصول على إجازات فى أعيادهم، على أن يعملوا فى الإجازات المسيحية[1]. أخيرًا تم افتتاح جامع فى قرطبة بعد ٦٠٠ عام من إغلاق الجوامع بها. أما فى

(١) لقد ظهرت نسخة فرنسية للتنظيمات والقوانين الإسپانية فى پاريس ١٩٩٤ رقم ٢ Le Conseil Nr.2.، وأخرى إنجليزية فى ENCOUNTERS رقم ٢/ ٢ Markfield, LE (UR) عام ١٩٩٦، ص١٥٥ ـ ١٦٧.
انظر هنا مراد هوفمان: الإسلام فى إسپانيا ـ نموذج يصلح لأوروپا ـ ميونيخ ١٩٩٦ عدد ٤ ص٤، ٥.

طليطلة، فأقيم فى ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٨ صلاة جمعة فى جامع كان قد أغلق لمدة ٥٠٠ عام. لقد نالت إسپانيا بهذا الاتفاق استحسانًا بالغًا فى العالم العربى ـ الإسلامى.

شكلت اتحادات إسلامية فى الدول الأوروپية «الاتحاد المركزى الأوروپى»، الذى يُعَدُّ لجنة التعاون الإسلامى فى أوروپا، واتخذ من مدينة ستراسبورج مقرًا له.

أما فى ألمانيا فيزداد الوعى بأهمية دور اللجنة المركزية لمسلمى ألمانيا التى تشكلت عام ١٩٩٤، والتى تُعَدُّ صوت المسلمين غير المرتبطين بتركيا. تقوم هذه اللجنة بإقامة «يوم المسجد المفتوح» يوم ٣ من أكتوبر من كل عام، حيث يجتمع فى هذا اليوم ما يزيد على ١٠ آلاف مواطن يتعرفون لأول مرة على الواقع الإسلامى.

لقد قامت الكنيسة الإنجيلية فى ألمانيا والمنظمات التابعة لها بتعيين شخصيات معنية بأمور الإسلام، ولقد كان لهؤلاء الشخصيات دور بارز فى أن تأخذ مناقشة الإسلام شكلًا أكثر موضوعية ـ كما ساهموا فى مقابلات إنسانية مثمرة بين الديانتين ـ كما لو أن روح المجمع الڤاتيكانى الثانى قد وجدت لها تحقيقًا من خلال الكنيسة الإنجيلية الألمانية.

ومن بين الأدلة على هذا، التقويم السنوى الذى يأخذ فى الحسبان الديانات الثلاث والذى تصدره الكنيسة الإنجيلية، ويشرف على إصداره القس توماس درسن، وهو متزوج من تركية مسلمة. وهناك بعض المدن مثل «أوفنباخ ـ Offenbach»، قامت بتخصيص مساحات لإقامة مدافن إسلامية مزودة بالتجهيزات اللازمة لعملية تغسيل الموتى.

ـ ٢ ـ

هذه سلسلة من المؤشرات المضيئة لتقبل الإسلام فى أوروپا، ولكن هدف الإسلام هو الاعتراف به واحترامه، وليس مجرد تقبله. فقد قال «جوته»: «التقبل والتسامح مجرد خطوة يجب أن تؤدى إلى الاعتراف، أما مجرد التقبل فهو إهانة».

يستطيع المسلمون أن يصلوا إلى هدفهم بأن يكونوا شركاء للغرب، وليس مجرد طالبى إحسان، إذا ما نجحوا فى إقناع الغرب بأن الإسلام يمكن أن يقدم لهم الكثير مما يحتاج إليه الغرب بشدة ويفتقده، حتى إن الإسلام يستطيع أن يحرره وينقذه من أزمته الوجودية. فالإسلام يمكن أن يكون دواءً لداء الغرب وليس مجرد عنصر يعمل على تعدد ألوان صورة الغرب.

يعتقد والترليبمان أن الغرب تتهدده اليوم بروليتاريا فكرية، وليس بروليتاريا العمال التى كان كارل ماركس ينادى بتكوينها وتشكيلها. «إن البرابرة لا ينتظرون خارج الحدود ولكنهم يحكموننا منذ زمن» كما يقول ماكنتاير[٢].

ولكن إذا كان الأمر بالفعل كذلك، أى أن جذور الأزمة الأخلاقية الحالية فى الغرب تعود إلى ٢٥٠ عامًا مضت، فإن عملية الشفاء منها تبدأ بنقد جذرى لعقلانية الحداثة وما خلفته من دين بديل.

فلن يكون هناك أمل فى الشفاء إلا إذا نجحنا فى تحرير الغرب من وهم الحداثة التى تحكمه؛ لأننا فى هذه الحالة فقط ننجح فى وقف عملية التسميم الذاتى العقلانى التى يمارسها الغرب؛ ليتمكن من إعادة صلته بالغيبيات وأن يستعيد المقدس والإلهى مكانته فى دائرة اهتمامه ويكون هذا أمام عينيه.

إذًا فالأمر يتطلب إعادة الاعتبار للدين كرد فعل عقلانى على حاجة الإنسانية والتى لا بد وأن تبدأ بوضع العلوم التطبيقية فى مكانها الطبيعى، وليس كبديل عن الدين.

الأمر باختصار يتطلب عملية تغيير فى النماذج المتبعة، تهدف إلى رؤية دينية جديدة للعالم، تتجدد من خلال موضوعية الإسلام وغيبياته المعقولة ووحدانيته الخالية من الأسرار والغموض.

من الممكن نظريًّا أن تقوم المسيحية بكل هذا، ولكن نظريًّا فقط؛ لأن المسيحية قد فقدت بمرور الوقت المصداقية المطلوبة بسبب المبالغات التى تتضمنها. ولم تبد الشخصيات المؤثرة فى الكنيسة استعدادها لاهوتيًّا لإعادة التقييم و«كَبْح» هذا التدهور، ولا نرى أنه من الممكن أن تساهم أى ديانات أخرى أو أيديولوچيات فى مسألة إعادة تشكيل الغرب ومساعدته على الشفاء من أمراضه. فالبوذية لا تساعد على تشكيل جماعات كبيرة. والليبرالية القائمة على «الحق الطبيعى والقانون الطبيعى» أضعف من أن تقوم بذلك. كلا ـ كما سبق القول ـ فإن الديانات المستعارة والبديلة غير قادرة على فك أغلال القوى الضرورية للتغلب على أنانية الفرد والجماهير.

ـ ٣ ـ

إننى أثق فى قدرة الإسلام على النجاح فى أن يستبدل بالنموذج القائم نموذجه القادر على تجاوز فشل الحداثة (وذلك بالرغم من القصور بين أتباعه) للأسباب التى سأذكرها هنا.

---

(٢) نقلًا عن أوفلس (١٩٩٧)، ص٥٧.

■ الدفء الإنسانى: لقد داعب حلم «إخضرار أمريكا» خيال الأجيال الشابة مع مؤلف هذا الكتاب تشارلز رايش ولم يكن حلم رايش أو حلم الدوحة الوارفة لتنشئة الأطفال يعنى سياسة تشجير المتنزهات، ولكن كان يهدف إلى تعاون جماعى ومشاركة جماعية جديدة تتسم بالكثير من الدفء الإنسانى.

ولكن هذا النداء لم يجد له صدى. فلم تجد الأجيال الدفء، بل وجدت بدلًا منه البرودة الشديدة، ولم تعد هذه البرودة سمة مميزة للعلاقات الشخصية فقط، بل أصبحت سمة للوضع الاجتماعى ككل. إن الوعظ فى الكنيسة يطالب دائمًا بأن «تحب جارك كما تحب نفسك»، ولكن لم يعد هذا إلَّا كلامًا يتلى فى الصلوات. أما فى الحقيقة، فإن هناك برودة اجتماعية تسود جميع العلاقات، ومنافسات قطع الرقبة وتكسير العظام حتى أصبح الحقد الاجتماعى أشبه ما يكون بمؤسسة راسخة فى ظل النظام الرأسمالى. «فالناس لا تريد أن تكون غنية بل أغنى من غيرها» (چون ستيوارت ميل). وفى ظل هذا المجتمع يشق كل فرد طريقه مستخدمًا العنف ليصل إلى سعادته المرتبطة، بل المتمثلة، فى الاستهلاك: فالزوج يستخدم العنف ضد زوجته ليحقق نجاحه الخاص، وهى تفعل المثل، والأطفال ضد الآباء، والعكس، كل ينسج خيوطه حول ذاته التى لا تمس.

فى ظل هذه الظروف تعيش الجماعات الإسلامية فى الغرب حالة تماسك اجتماعى يترفع عن العناصر العرقية والقومية، هذا التعايش يشع دفئًا اجتماعيًّا ملموسًا. لا يملك المحيط الغربى إلا أن يتابع المسلمين بدهشة بالغة، حين يراهم وهم يشيدون المساجد من حصيلة نقودهم التى حصلوا عليها من تطوعهم بالعمل فى إجازات نهاية الأسبوع وغيرها، وكيف يحتفل المسلمون بأعياد الفطر وعيد الأضحى وكأنها حفلات عائلية كبيرة. فالمسلمون يُحررون الدين من اختزاله بخصوصية الإنسان ويجعلونه عامًا. إنهم يؤممون الدين. والكثير من المراهقين يعجبهم هذا على وجه التحديد. فكثيرًا ما وجد أحد المعتنقين للإسلام طريقه للإسلام من خلال الإحساس الجماعى واستعداد المسلم للتضحية ومراعاته للغير، وبسبب هذا الدفء الإنسانى.

■ أما بالنسبة لمعاداة الإسلام للعنصرية، فلقد أفردنا لها فصلًا خاصًا به. فلقد اعتنق الكثيرون من المضطهدين والمنبوذين الإسلام بسبب معاداته للعنصرية ومساواته بين البشر، ومن هؤلاء الجماعات نذكر على سبيل المثال وليس الحصر: المنبوذين فى الهند، والفلبينيين العاملين فى الخليج العربى، والأمريكيين من أصول إفريقية فى الولايات المتحدة.

■ ومن النقاط التى لا تقل أهمية: حرية الفرد فى علاقاته بربه، أى عدم وجود وسيط بين المسلم وربه، دون سلطة كهنوتية. فالنصوص الإسلامية الأساسية متاحة للكل، لا يستطيع أحد أن يدعى أنه يحتكر تفسيرها. لا توجد محكمة كنسية كالتى فى روما، وليس هناك نسق كنسى. وليس هناك فتوى ملزمة للمسلم(*). والزواج ليس رباطًا أبديًا لا يفصم. يستطيع كل مسلم أن يؤدى أى عبادة دون وجود وسيط. وخلو هذا الدين من التسلط الكهنوتى، وغياب الهيراركية فيه، يؤثران بشكل إيجابى على كثير من الشباب فى الغرب.

■ لقد بالغت الحداثة فى أداء وظيفتها فى استبعاد جميع الأسرار والمعجزات والأعمال الخارقة من العالم. وكانت النتيجة استياءً عامًا من كل شىء يبدو وكأنه معجزة. والطريق إلى المسيحية ممهد بمعجزات كثيرة، بينما لا يعرف الإسلام إلا معجزة واحدة هى القرآن. ولكن الأهم من ذلك، أن الإسلام يطالب المسلم دائمًا بألّا يدع أحدًا يفكر له، فهو ملزم بالتفكير والتدبر. لا يصح للمسلم أن يتوارث دين آبائه دون اقتناع منه بهذا الدين، بل عليه أن يعمل عقله ويقرر لنفسه. أى أنه وفقًا لرأى «جوته»: على المسلم أن يكتسب إرثه الدينى عن طريق الفكر حتى يمتلكه حقًا. وهذه العقلانية التى تميز الإسلام والتى تنعكس فى الأجواء الواضحة التى تسود الجوامع، تثير إعجاب كثير من الناس.

■ يعتقد رويجر سافرانسكى أننا نعيش عصر «تعدد الآلهة العلمانى»، فالإله الواحد «تشرذم فى عدة آلهة منزلية صغيرة»(٣). ويشاركه المسلمون الرأى نفسه. فإدمان الإنسان الغربى للسجائر والخمر وأنواع المخدرات الأخرى، والسيل الذى لا ينقطع من وابل إعلانات التليفزيون التى يقصف بهاالبائعون الإنسان فى الغرب، كل هذا أصبح عملية منظمة تستهدف الإنسان، وينعكس فى عملية الإدمان هذه السباق الاجتماعى المحموم للحصول على نصيب وقسط من السعادة المفقودة.

لقد دفع الغرب ثمن ازدياد ظاهرة الإدمان وآثارها المدمرة على الحضارة الغربية، ولكنه لا يستطيع ـ كما هو حال المدمنين ـ أن يفعل شيئًا حيال ذلك. فبدلًا من القضاء على المخدرات، يحاول التوصل إلى أنواع أقل خطرًا، ويقوم بالسماح بأنواع أكثر وبمنح حريات أكبر فى تناول المخدرات.

إن أمريكا التى ثارت وهاجت ضد تجارة الخمور فى عشرينيات القرن العشرين، لم تخرج

(*) جاء فى الحديث «اسأل قلبك وإن أفتاك الناس ما أفتوك» [المعجم الكبير للطبرانى ٧٨٥٨].
(٣) سافرانسكى: «إرادة الإيمان» FAZ ملحق تاريخ ٢٤/ ١٢/ ١٩٩٣.

من هذه المعركة إلا وقد أضافت إلى مشكلاتها مشكلة جديدة هى المافيا، أمريكا هذه تثور اليوم مجددًا ولكن ضد التدخين.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن الصورة تختلف. ففى مقابل مشكلة المخدرات هذه يقف المسلم بما يفرضه عليه دينه من الصحوة والإفاقة من المخدرات كافة. فرفض المسلم للإدمان ليس مبنيًا على مراعاة صحة الفرد فقط، ولكن أيضًا يبتعد به المسلم عن عصيان بالله بأن يرفض تخدير وتغييب عقله، الأمر الذى يمنعه من ذكر الله والعمل بشرعه، فكأنه فى النهاية طريق للشرك.

وتستفيد من هذا الأمر فى أمريكا الأحياء التى يقطنها الأمريكيون ذوو الأصول الإفريقية، عندما يتعاون المسلمون على إخلاء هذه الأحياء من المخدرات بشكل سلمى عن طريق الدين، كما يحدث فى لوس أنجلوس وفيلادلفيا.

■ يرى أوفلس أن الاتجاه النسائى المتطرف ذا الصبغة الغربية، إنما هو «إعلان بالانهيار التام والنهائى للمجتمع المدنى»[٤]. ويتساءل الكثيرون من المعنيين وهم فى حيرة من أمرهم: ماذا سيحدث لهذا الجيل الذى تربى فى ظل غياب الأب؟ هل سيقوم هذا الجيل بالقضاء تمامًا على الأسرة؟ ويولى المسلمون للأسرة أهمية قصوى، وينزلونها منزلة عالية حتى إنهم يرفعونها إلى أعلى مكانة، فيَعُدُّونها أهم وحدة اجتماعية. والمسلمون يدقون ناقوس الخطر حين يقولون: إن انهيار المجتمع يبدأ من الأسرة وينتهى كذلك عندها.

ويستجيب بعض الشباب الذين أخافهم انتشار مرض الإيدز لهذا الإنذار ويعودون للارتباط الوثيق بأسرهم. لقد وجد كثير من الناس طريقهم إلى الإسلام عن طريق معايشتهم للأسر الإسلامية.

■ من الطبيعى أن يعتقد المرء أن «الحق فى الحياة» حق لا خلاف عليه، وهو من حقوق الإنسان البديهية، ولكن هذا لا ينطبق إلَّا على المحظوظين منا ممن تمكنوا من اجتياز خطر مرحلة ما قبل الولادة وجاءوا إلى الحياة فعلًا.

فلم يَعُدْ هناك ـ حتى فى الأوساط الكاثوليكية ـ حركة قوية ونشيطة مناهضة لمسألة تقنين عمليات الإجهاض والسماح بها. فليست صحة الأم فقط هى التى لها أولوية على حياة المولود فى الغرب، بل هناك كذلك ما هو أهم من حياة المولود، مثل السيارة الثانية، والفراء الثانى، والإجازة الثانية. ويتخذ بعض الناس ذوو العقليات المتحفظة موقفًا أصوليًّا متطرفًا من

(٤) أوفلس (١٩٩٧)، ص٥١.

مجتمعاتهم، ويكتشف بعضهم أنهم فيما يخص مسألة إباحة الإجهاض أو تحريمه، إنما يشاركون موقف الإسلام من تحريمه، بل تجريمه للإجهاض. وإن موقف الإسلام هذا واتباعه، أفضل بكثير من إلقاء القنابل على العيادات التى تجرى فيها عمليات الإجهاض(*).

■ يستطيع المرء المتابع للمسيحية فى موقفها من الجنس والمرأة، أن يلاحظ وجود اتجاهين متناقضين، بل متطرفين، وذلك منذ بولس وأوجوستين حتى يومنا هذا. ويتمثل هذان الموقفان فى موقف شديد التطرف من المرأة والجنس ينادى بالپيوريتانية الشديدة، ويكاد يرى فى المرأة الشيطان نفسه. أما النقيض الآخر لهذا الموقف فهو الانغماس بلا حدود أو رادع فى الملذات الجنسية. وإذا ما نظرنا إلى هذا الموقف الأخير على أنه غير مسيحى واستبعدناه تمامًا من المسيحية، لأمكن فعلًا وصف المسيحية كما فعل چورچ دنزلر فأسماها «٢٠٠٠ عام من تحريم المتعة».

على النقيض من المسيحية، استطاع الإسلام أن يدمج الجنس فى حياة المسلم اليومية دون اتخاذ موقف أحادى متطرف. كما أن الإسلام لم يتخذ موقفًا مناهضًا للمرأة أو الزواج ولم يجعل من الزواج سرًا إلهيًا. لقد أبدى المسلمون دهشتهم من أن الجنس والعلاقة الزوجية مثاب عليهما من الله، فقام الرسول بتوضيح ذلك حيث بين لهم أن العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج الشرعى إنما هى خطيئة يعاقب عليها الإنسان، إذًا فالأمر الأول، أى الثواب هو الوجه الآخر للعملة، أى للعقاب على الخطيئة. ويتطابق الموقف العقلانى الذى يتخذه الإسلام من الجنس مع الفطرة البشرية، ويفسر ذلك عدم وجود رهبنة فى الإسلام وعدم وجود ساحرات! فإذا أراد الغرب أن ينجو أخيرًا من التخبط بين النقيضين فى الموقف من الجنس ـ هذا التخبط الذى كلف المجتمع الغربى الكثير ـ فإن الإسلام دين الوسط يلوح كمخرج وملاذ.

■ أما بالنسبة لموضوع تحرير المرأة، فقد بدأ المرء يلاحظ صحوة فى الغرب، بعد أن اكتشفت بعض النساء أن الأوان قد فات ليصبحن أمهات فى خلال انغماسهن المحموم لتحقيق نجاحات باهرة فى مجال العمل. ولقد زاد من أسباب هذه الصحوة أن الكثيرات من النساء لاحظن أن الرجل لا يزال يحكم سيطرته على الساحة السياسية ودنيا العمل، وأن المرأة لا تزال تتعرض لأنواع شتى من الاستغلال، حتى لأغراض دعائية وإعلانية. وفى ظل هذا المناخ، فإن الكثيرات من النساء قد تيقن أن وضع المرأة فى الإسلام وتحرير الإسلام للمرأة لهو أنسب مما يقدمه الغرب،

(*) تقوم منظمات مسيحية أصولية فى أمريكا بالهجوم على عيادات الإجهاض، ويقوم بعضها بإلقاء القنابل أو قتل العاملين بها. ومن يريد الاستزادة عن الأصولية المسيحية فى أمريكا يمكنه قراءة «أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا»، من منشورات مكتبة الشروق الدولية ـ (المترجم).

ولذلك تختار كثيرات من النساء ـ بحريتهن ـ ارتداء غطاء الرأس، والالتزام بالزى الإسلامى ليكتسبن وقارًا وكرامة واحترامًا كن قد فقدناها فى خضم التنافس على العرى العلنى.

■ وبالنسبة لمشكلة الشذوذ الجنسى، نستطيع أن نقول كلامًا مشابهًا لما ذكرناه عن الإجهاض. فإن الشائع الآن أن يبتعد المرء عن هذه المسألة. وقد شهد الغرب تخبطًا واضحًا وتأرجحًا بين موقفين متطرفين من هذه المسألة؛ فتارة يعاقب القانون على الشذوذ ويَعُدُّه جريمة، ثم يتم تقبل هذا الأمر حتى يكثر الحديث عن إمكانية ممارسة حياة الشذوذ، ويتحول الشاذ فجأة من مجرم إلى عضو فى أقلية تتمتع بكافة الحقوق والحماية التى للأقلية، بل لهم الحق فى عقد الزيجات بينهم!

ولقد اتخذ الإسلام موقفًا عمليًّا عقلانيًّا من الشذوذ، فتقول سورة النساء: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾.

فكثير من المفسرين يعتبرون الآية ـ والآية التى تسبقها ـ عن الشذوذ، والإيذاء هنا كلمة واسعة تحتمل صنوفًا كثيرة من التعزير طبقًا للحالة، أهى مرضية وانحراف عن الفطرة بسبب التنشئة وما إلى ذلك؟ أم هى مجرد فسوق وعصيان يستوجب التعزير الشديد؟.

وتقول الآية السابقة لها ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾، ونجد هنا العقاب بحبس تلك النساء ـ بعد شهادة أربعة عليهن ـ فى بيوتهن حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلا، وتبين الآية ١٧ ذلك السبيل ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

والإسلام لا يرفع الشذوذ إلى مستوى حياة مقبولة أو حتى مثالية. فالشذوذ لا يمكن عَدُّه أسلوب حياة أبدًا.

وهذا الموقف ينال إعجاب ورضا أناس فى الغرب، ويزداد الإعجاب بموقف الإسلام حيث يؤدى هذا الموقف إلى مقاومة انتشار مرض الإيدز.

■ يبتسم المسلمون ابتسامة ذات دلالة عند رؤيتهم للمواد الطبية المستخدمة لإنقاص الوزن أو للأطعمة المخصصة للحفاظ على رشاقة الإنسان، خاصة أن مشكلة السمنة أصبحت إحدى

الظواهر المخيفة فى المجتمعات الغربية، أى مجتمعات الوفرة والاستهلاك. ويعود سبب هذه الابتسامة، إلى اقتناع المسلم بأن أنظمة التغذية التى تهدف إلى إنقاص الوزن لا فائدة منها إذا لم تصاحبها عملية تجديد ذهنى وروحى، وأن صيام شهر رمضان كما أمر به الله وكما أراد للمسلم أن يؤديه، يفى بكل ما تهدف إليه الأنظمة الغذائية وأكثر، أى: الإحياء الذهنى والروحى، وممارسة الانضباط، وفقدان الوزن الزائد والسعرات الحرارية غير الضرورية.

لقد تعرف كثير من الناس فى الغرب على الإسلام فى شهر رمضان، وتبينوا من خلال هذا أن الإسلام دين يعنى بالإنسان من كل جوانبه.

■ يعانى الإنسان الغربى من التوتر، ليس فى موقع العمل فقط، ولكن فى أثناء إجازته، بل وخلال ممارسته للجنس داخل إطار الزواج أو خارجه. فمشكلة هذا الإنسان ـ والتى لم يفكر أحد فيها سابقًا ـ هى أن يتعايش مع الحياة. فالمشكلة ليست ماذا يحدث فى الحياة، ولكن المشكلة أن تمارس الحياة؛ ولذلك فإن الأمريكى المتوسط له دائمًا طبيب نفسى، إلَّا إذا كان يتبع أحد الطرق التأملية مثل اليوجا أو طقوس الشاى اليابانية. ولن تجد إنسانًا لا يعانى من أزمة وجوده هذه، إلا وعَدَّه الآخرون إنسانًا غير متعايش مع واقعه وغير عاقل. ولذلك فإن أوفلس ليس على خطأ تام عندما يقول إن علم الطب النفسى هو ذاته مرض المجتمع، ولو ادعى هذا العلم قدرته على شفاء الناس منه(٥).

ويكتشف بعض الناس أن الإسلام يستطيع أن يحقق معجزة وهى أن يجد الإنسان نفسه ويحفظ ذاته من خلال أدائه للصلاة، وتسليم أمره كله لله.

■ كتب فرانشيسكا أوجستين ذات مرة أن اقتصاديات السوق الحرة تُصوَّر وكأنها الجنة(٦).

لن يستطيع أحد أن ينكر أن هذا النظام الاقتصادى تحول فى الغرب إلى «مجتمع متخم بالرفاهية»، مجتمع التشتت والكآبة(٧). ولا تعود ملكية رأس المال العامل والمحرك للاقتصاد الأمريكى إلى مستثمرين مغامرين يستطيعون إعطاء النظام الرأسمالى الحيوية الضرورية، فأكثر وأعظم الأرباح تجنيها المؤسسات التى تضمن عائدات الربا وليس المؤسسات التى تغامر برأس المال فى مشروعات إنتاجية. ويرتبط بهذا النظام مخاطر مثل الركود(*).

---

(٥) أوفلس (١٩٩٧)، ص١٩٨.

(٦) أوجستين «يا إلهى قد سيتك عظيمة جدًّا!» FAZ ٢٣/ ٤/ ١٩٩٨.

(٧) نقلًا عن FAZ ٢٧/ ١/ ١٩٩٥م ص٣٨.

(*) أو الانهيار كما حدث لبورصة وال ستريت والبورصات العالمية فى السنوات الأخيرة ـ (المترجم).

أما الإسلام بإصراره على منع وتحريم الربا، فإنما يصر بهذا على تشغيل رأس المال الباحث عن الربح والزيادة فى صورة مشاركة فى الربح والخسارة(*).

هناك من لا يجد مأربه فى النظام الاقتصادى الاشتراكى المبنى على الخطط، ولكنه يرفض كذلك الرأسمالية بحرياتها غير المقيدة. يستطيع من يجد نفسه فى مثل هذا الموقف أن يكتشف أن الإسلام يمثل طريقًا وسطًا فى الاقتصاد خاصة بعد قراءته تحليلات «عمر شابرا» المبهرة، وهو سعودى من أصل باكستانى تعلم فى الولايات المتحدة.

بعد أن تناولت بالعرض ما يمكن أن يقدمه الإسلام للغرب من مفاتيح جوهرية ومفاتيح أقل أهمية، وما يجعل هذا الدين جذابًا بالنسبة للغرب، فإننى سأحاول أن ألخص هذه الفروق الكثيرة بين الغرب والشرق فى مسمى واحد، وإن كان هذا ـ بطبيعة الحال يقلل من حجم الحقيقة ـ الفارق الأساسى بين العالمين الغربى والشرقى يتلخص فى الفرق بين «الكمية» و«الكيفية». فالغرب لا يعرف قيمة أى شىء ما لم يستطع أن يعبر عن نفسه فى أرقام. فالقيم الفكرية والروحية لا يمكن تسويقها أو الإعلان عنها، ولذلك فهى بلا قيمة مادية. وفى هذا الإطار، فإن اهتمام الإنسان الغربى يدور حول ما (يملكه وما يكون لديه) أما الإنسان الشرقى فيهتم بـ (الوجود). ويثبت ذلك أن الحديث يدور بكثرة فى الغرب وليس الشرق عن «جودة الحياة». ومن يعيش فى الشرق يكتشف فى حقيقة الأمر، جودة ومعنى للحياة غير قابل للإعلان عنه أو تسويقه، يظهر فى السلوكيات مثل: الموقف غير المتشنج بل الهادئ من الوقت، كرم الضيافة، تواضع العلماء، تحويل كل ما يراه الغرب من ضروريات الحياة إلى مرتبة ثانية، الهدوء والرضا والقناعة كأسلوب حياة.

إن الأمر كله يكمن فى هذا «النور»، هذا الضوء الذى كان دائمًا يشع من الشرق، هذا الضوء بمعناه الحرفى ومعناه الرمزى. إننى بجدالى هنا عن كون الإسلام يملك الإجابات الصحيحة عن أسئلة الغرب الكثيرة وأزماته المتعددة، إنما أوضح وأثبت أن الإسلام ليس طالب إحسان من الغرب، ولكنه مانح رئيسى لكثير من القيم وأساليب الحياة.

أما أن يعترف الغرب بهذا أو لا، فهذه مسألة أخرى. فجميعنا يعرف بطبيعة الحال الكثير من المرضى أو المدمنين الذين يحجبون الحقيقة ويرفضون الذهاب إلى طبيب حتى لا يواجههم

(*) خاضت ماليزيا فى العقود الثلاثة الماضية تجربة رائدة فى التمويل والاقتصاد الإسلامى، ويمكن لمن يريد الاستزادة قراءة كتاب «التجربة الماليزية»، نوال بيومى، من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

بالحقيقة. وهذا هو حال المجتمع الغربى. فبالرغم من وجود تحليلات دقيقة ونافذة ذات دقة بالغة مثل تحليلات دانيال بل، ووليام أوفلس المبهرة، فإن غالبية الناس الذين يعيشون معهم هذه الأزمة، أزمة حضارتهم، لا يعون أبعاد هذه الأزمة. فالاتجاه العام فى الغرب يميل إلى إصدار أصوات الانتصار، ولا يفيد التشخيص السليم والعلاج السليم مريضًا إلَّا إذا تناول هذا المريض الدواء وتناوله فى أوقاته. ولكن هذا غير متوقع، فجزء من المشكلة هو أن الغرب قادر على الرؤية والفهم ولكنه غير قادر على الفعل، كما هو حال كل الحضارات فى حالات انهيارها. لقد صاغ ذلك الرئيس الألمانى السابق هيرتزوج عندما قال: «نحن لا نعانى مشكلة معرفة، ولكن مشكلة تحويل هذه المعرفة إلى فعل»[٨].

يتضمن القرآن أخبارًا عديدة عن شعوب لم تستمع إلى صوت الحق ولم تستجب لرسلها، بل ضربت بتحذيراتهم عرض الحائط حتى غربت حضاراتهم تمامًا. والغرب ينتظر مثل هذا المصير. فبعد انتصاره على الشيوعية يتهدده تدمير الذات ومصير الفناء، إلا إذا تجاوز تأليه الإنسان، ووجد طريقه مرة ثانية عائدًا إلى التمسك بالقيم الإلهية.

ويشير الإسلام إلى هذا الطريق.

* * *

(٨) «هيرتزوج» خطبة برلين. العالم يوم الأحد ٢٧/ ٤/ ١٩٩٧ ص١١.